جورج كارفر.. الزنجي النابغ

كان مولده في أمريكا خلال الأيام السوداء للحرب الأهلية التي إجتاحتها في منتصف القرن الماضي، وكان هو نفسه زنجيًا أسود، وبدا حظه يومئذ أشد سوادًا من لونه ومن الظروف التي ولد فيها. فقد خرج إلى الحياة محرومًا من كل شيء..حتى من إسم الأسرة التي ينتمي إليها، فأبوه غير معروف، وأمه «ماري» جارية زنجية مملوكة لصاحب مزرعة صغيرة في قرية «دياموند جريف» في ولاية «ميسوري» يدعى «موسى كارفر»..وهكذا لم يكن هناك بد من الإكتفاء بإختيار إسم «جورج» لكي يعرف به بين من ضم إليهم من العبيد القليلين المملوكين لصاحب المزرعة!

وقبل أن يجاوز مرحلة الطفولة، وقع في أيدي جماعة من تجار الرقيق المنتشرين في تلك الأصقاع حينذاك، وكادوا يذهبون به إلى حيث يبيعونه في مكان آخر، ولكن صاحب المزرعة وزوجته رق قلباهما له، فأنقذاه في آخر لحظة من ذلك المصير المجهول الرهيب..ولم يكلفهما ذلك أكثر من حصان إفتدياه به من النخاسين الذين اختطفوه!

ومنذ ذلك الحين، صار الزنجي الطفل «جورج» موضع عطف خاص لدى سيديه، وما كاد يشبه عن الطوق ويبلغ السن التي تؤهله للعمل في المزرعة مساعدًا لزملائه العبيد الكبار حتى ضن به سيداه الطيبان على العمل المرهق، وإكتفيا بأن عهدا إليه في أعمال سيرة أخرى، كالإشتراك في إطعام الدواجن، وتنقية حديقة المنزل من الحشائش الطفيلية. وعرف

زملاؤه موضعه عند صاحبي المزرعة ودالته عليهما، فتركوه وشأنه، يلهو ويلعب ويمرح في الحديقة المجاورة للمزرعة. وعرف بينهم بهوايته المفضلة حينذاك، وهي التجول في الغابة، والتأمل في أشجارها وأعشابها وصخورها. ثم العكوف بعد عودته على فحص ما جمعه من غرائب الحجارة والنبات، وأطلقوا عليه من أجل ذلك لقب «طبيب الغابة».

ولم يمض قليل حتى أعلن سيداه أنهما أعتقاه، وبذلك تحققت حريته من الوجهة الرسمية. ثم إستمرا في إغداق عطفهما عليه، وعاملاه كأنه ولدهما، وأخذت السيدة «كارفر» في تعليمه القراءة والكتابة، مستعينة على ذلك بكتاب قديم في الهجاء وجدته في المنزل، وكان إقباله شديدًا على التعلم، فما لبث قليلًا حتى وعى ذهنه كل ما في ذلك الكتاب من دروس.

وألح الزنجي الصبي في أن يواصل الدرس، وتردد سيداه القديمان في أول الأمر، إذ لم تكن هناك مدرسة يستطيع الإلتحاق بها إلا مدرسة مدينة «نيوشو» وهي تبعد أميالًا من المزرعة، ثم لم يسعهما إزاء إلحاحه المستمر إلا إجابة رغبته فسمحا له بالتوجه إلى تلك المدينة كي يلتحق بمدرستها. وقد سافر إليها وحده، وبات ليلة في طريقه إليها، مفترشًا كومة من العشب. على أنه سرعان ما نسي كل ما لقيه من تعب وعناء، حينما وصل إلى المدرسة في اليوم التالي، وقدر له أن يقبل وهو الزنجي الأسود في عداد تلاميذها البيض!

لم يكن لونه وحده ما إعترض طريق تعلمه، فقد كان عليه أن يدبر أمر

معيشته في خلال ذلك، لكنه عرف بهمته وطموحه وصبره الجميل كيف يذلل جميع العقبات. وقضى سنة في تلك المدرسة الصغيرة إستوعب خلالها كل ما كانت تمنحه لتلاميذها من الدروس، ولم يحل دون إحرازه هذا التقدم والتفوق على أقرانه البيض فيها، أنه كان يقضي جانبًا كبيرًا من وقته في العمل لكسب رزقه!

وكان في أول الأمر يقوم بأعمال مضنية تافهة في الوقت نفسه، كالخدمة في المنازل ومساعدة الطباخين والغسالين، ثم بدأ يختار لنفسه أعمالًا تتفق ورغبته في الإستزادة من العلم، فكان يعمل في مساعدة الخياطين والنساجين وصانعي السجاد والقائمين بالتطريز والحفر، ومن إليهم. وبذلك أتقن كثيرًا من الصناعات الفنية، بجانب الحصول على نفقات دراسته الأخرى ومعيشته.

وبقي هذا شأنه في البلاد الكثيرة التي رحل إليها وعاش فيها ملتحقًا بمدارسها الإبتدائية والثانوية، إلى أن تركز عمله أخيرًا في إنشاء مغسل خاص به في البلد الذي يقيم به. وإستطاع بحسن سياسته وإتقانه عمله أن يجتذب إلى مغسله كثيرين من العملاء، مما زاد في دخله، وجعل في إستطاعته أن يعيش في سعة من الرزق، إذا هو إتخذ من هذا العمل حرفة له.

غير أن همته العالية أبت عليه أن يقف عند هذا الحد، وآنس من نفسه إستعدادًا للدراسة العليا، فأرسل إلى «جامعة هايلاند» طالبًا الإلتحاق بها، ولم يتردد لحظة في بيع مغسله ليحصل على أجر السفر إليها

حين جاءه الرد بقبول طلبه!

وهناك في مكتب المسجل بهذه الجامعة، فوجيء الطالب الزنجي بإنهيار كل ما شاده من صروح الآمال، إذ تبين أن الجامعة قبلت طلبه من غير أن تفطن إلى أنه زنجي، في حين أنها لا تقبل في كلياتها غير الطلبة البيض!

وكانت هذه الصدمة القاسية جديرة بأن تبعث اليأس إلى قلب الطالب الزنجي الشاب، ولكنه لم يكن يعرف اليأس، لم يكن لونه وحده ما إعترض طريق تعلمه، فتلقى الصدمة بروح قوية عالية، بل حرص على إنقاذ مسجل الجامعة من مأزقه الحرج، فسحب طلب إلتحاقه المقبول بها، ثم إنصرف بعد أن حياه مبتسمًا شاكرًا، مع أنه لم يكن يملك حتى قوت يومه، إذ أنفق كل ما حصل عليه من بيع مغسله في أجر سفره على أمل الإلتحاق بالجامعة!

وفي السنة التالية، سنة ١٨٩٠ أتيح للطالب الزنجي الشاب أن يحقق أمنيته الكبرى، فقبل طلب إلتحاقه بجامعة «سمبسون» الحرة في ولاية «أيووا». ولم يقف توفيقه عند حد قبوله بها برغم زنجيته وإضطراب دراسته السابقة بل شفع له ذكاؤه وحرصه الشديد على التعلم، فسجل إسمه في كلية الآداب، وسمح له في الوقت نفسه بأن يدرس البرامج التي تتفق مع ميوله ومؤهلاته في كلية العلوم!

وفي قسم الفنون بكلية الآداب، وجد جورج كارفر معونة صادقة كبيرة من الآنسة أتابد Etta Budd رئيسة القسم، فأمضى السنوات

الثلاث التي لبثها بالجامعة ملازمًا حلقات دروسها الفنية، حيث أهله إستعداده للتقدم يومًا بعد يوم في ميدان الفن. وإستطاع في سنة ١٨٩٣ عرض مجموعة من لوحاته في معرض شيكاغو الدولي فكانت محل التقدير والتكريم!

وكتب جورج كارفر إلى بعض خلصائه من أهل قريته واصفًا شعوره بالغبطة والفخر لهذا النجاح الذي أحرزه، كما أثنى على أستاذته الآنسة أتابد أجمل الثناء، وقال عن أيامه الأولى بالجامعة: «إنها كانت مليئة بالتعب والشقاء، وقد كدت أهلك جوعًا لعدم الإقبال على المغسل الذي أنشأته لأعيش منه، إذ إنصرف عني الناس لغير سبب سوى لوني الأسود، ولكني لم أيأس، ومضيت في سبيلي صابرًا مثابرًا حتى تبدلت الحال، فأقبل العملاء على مغسلي، وصار الجميع يلقونني بالبشر والترحاب في الجامعة ونادي الموسيقى وملاعب الكرة وغيرها من المنتديات العامة».

وسألته الآنسة أتابد عما يعتزم عمله بعد أن أتم دراسته الفنية، فلم يجد أول الأمر ما يجيب به عن هذا السؤال، ثم ما لبث قليلًا حتى وجد الجواب، وعجب من نفسه كيف غفل عنه في حين أنه كان يفكر فيه ليل نهار..ولم يكن العمل الذي إعتزم القيام به بعد إتمامه دراساته الفنية إلا دراسة العلوم الزراعية والميكانيكية، لكي يستطيع أن يقدم خدمات نافعة لقومه السود!

وهكذا إلتحق جورج كارفر بكلية الزراعة في جامعة أيووا، وكان من حسن طالعه أن توثقت صلاته فيها بالأستاذ جيمس ولسن مدير المحطة

الزراعية، والأستاذ هنري كانتول والاس، أستاذ الزراعة بالكلية، فلقى منهما كل عون وتشجيع وتقدير، وبقيت صلته الوثيقة بهما أكثر من ثلاثين عامًا بعد تخرجه في الكلية وتعيينه مدرسًا بها سنة ١٨٩٤.

لبث جورج كارفر حوالي سنتين مدرسًا في الكلية التي تخرج منها، وقد كان خلالهما موضع الثناء المستطاب من إدارة الجامعة وأساتذتها وطلبتها، لما لمسوه جميعًا من إخلاصه في عمله، وحسن معاملته لهم. وفي خلال السنة الثانية تحققت أمنيته الكبرى إذ كتب إليه معهد توسكيجي Tuskegee يعرض عليه رياسة قسم الزراعة الذي أنشيء فيه. فقبل هذا العرض فورًا. وكان هذا المعهد قد أنشيء حديثًا ليكون مركزًا لتدريب الشبان المثقفين الزنوج وإعدادهم لتعليم أبناء جلدتهم وتثقيفهم.

ولو أن رجلًا آخر غير كارفر عين رئيسًا لذلك القسم، ولما رضى ولما إستطاع البقاء فيه شهرًا واحدًا، ذلك لأن مجموع الطلاب الذين تيسر إلحاقهم بالقسم المذكور لم يكن يزيد على ثلاثة عشر طالبًا، لا يجمع بينهم سوى اللون والرغبة في الدراسة. وهم بعد ذلك مختلفون كل الإختلاف من حيث الاستعداد! ولكنه كان فيما بينه وبين نفسه قد إقتنع بأنه وضع قدمه في أول الطريق الصحيح إلى الغاية التي وهب حياته للعمل على بلوغها. ولم يكن غير الموت شيء يستطيع أن يثنيه عن المضي قدمًا في هذا الطريق.

وسرعان ما أعد كارفر برنامجًا مرنًا للدراسة يلائم طلبة القسم جميعًا، ولم تقف ضآلة الميزانية حائلًا بينه وبين تزويد القسم بعمل بديع مفيد، فلم تمض أسابيع حتى أنشأ هذا المعمل، مستعينًا بما وجده من الأشياء المهملة

في مخازن المعهد والمناطق المجاورة له من قطع السلك والحبال، وألواح الصفيح، والزجاجات القديمة المكسورة والجرائد المهملة وما إليها، ومجموعات من الحشرات المنتشرة في تلك الأصقاع.

وكان يعامل تلاميذه كأنهم إخوته الصغار، فيشعر كل واحد منهم بأنه يختصه بكل رعايته وعطفه، ولا يدخر جهدًا في سبيل تدريبهم على تطبيق ما يزودهم به من علم غزير أو في سبيل الترفيه عنهم لتجديد نشاطهم وتحبيب العمل إليهم. وبذلك كله أخذ عدد الطلاب في القسم يزداد عامًا بعد عام، كما أخذ المعمل في الوقت نفسه ينتقل من حسن إلى أحسن، بفضل جهوده المتواصلة ليل نهار!

وبعد سنوات، رأى كارفر أن عمله في المعهد وحده لا يكفي لبلوغ الغاية التي ينشدها، فأخذ يطوف من حين إلى حين بمناطق الجنوب، حيث يحضر إجتماعات الفلاحين في قراهم النائية وأسواقهم وحقولهم، وهناك يتبسط معهم في الحديث، ويزودهم بإرشاداته ونصائحه الزراعية المفيدة، ويدعوهم إلى زيارة مركز الأبحاث الزراعية الذي أنشأه في المعهد، لكي يقفوا على مزيد من المعلومات النافعة لهم.

وفي هذه الرحلات والزيارات المتعددة، أخذ كارفر يدعو الفلاحين إلى زراعة محصولات أخرى كالبطاطا والفول بدلًا من الإكتفاء بزراعة القطن، مؤكدًا لهم أن تعدد المحصولات المزروعة مما يعود عليهم بفائدة أكبر، وأنه في الوقت ذاته ضروري لضمان التربة وجودتها وقدرتها على الإنتاج.

وكانت دعايته هذه لا تجد قبولًا من الفلاحين الذين يستمعون إليها،

لخروجها على ما ألفوه، ولخشيتهم عواقبه الإقدام على التجديد. ثم شاء القدر أن إستجاب له بعضهم، فزرعوا مساحات صغيرة من أرضهم فولًا بدلًا من القطن، فكان ربحهم من ذلك كبيرًا..وشجعهم هذا كما شجع غيرهم فزادت المساحة المزروعة فولًا في السنة التالية إلى حد كبير، بحيث ضاقت الأسواق عن تصريف محصوله الكثير، وضاعت بذلك جهود زارعيه وأصيبوا بخسارة فادحة بدلت إعجابهم بكارفر سخطًا ونقمة عليه!

وفي سنة ١٩٢١ ألفت في واشنطن لجنة لبحث الوسائل الكفيلة بحماية المحصولات الزراعية، ودنى كارفر إلى إجتماعاتها، حيث قوبل بفتور، ولم يخف أكثر الأعضاء سخريتهم من الزنجي الكهل الطويل الذي دخل عليهم مثقلًا بأحمال من الحقائب والغرارات، وحينما طلب الكلام ليدلل على صحة الفكرة التي يدعو إليها، لم يسمح له بأكثر من عشر دقائق، حتى لا يضيع وقت أعضاء اللجنة الثمين.

ولم يزد كارفر على أن إبتسم شاكرًا للجنة، ثم فتح حقائبه وغراراته، وأخذ يخرج منها نماذج عدة مختلفة مما إستخرجه في معمل المعهد من مشتقات الفول والبطاطا. وقد بلغ عددها ١٤٥ بين دقيق وقهوة ولبن وجبن وطلاء للوجه ومخللات ودهان للشعر، وحبر، وطلاء للبيوت، وغيرها.

وهكذا إضطر أعضاء اللجنة إلى الإصغاء بكل جوارحهم إلى الشرح الذي ألقاه عليهم العالم الزنجي الكهل الطويل، عن كل مستخرج من هذه المشتقات. وإمتد حديثه لا عشر دقائق كما قرروا أول الأمر، بل حوالي ساعتين!

ولم تعد المشكلة بعد ذلك مشكلة إيجاد أسواق للمحصولات الجديدة التي أشار كارفر بزراعتها إلى جوار القطن، بل صارت منذ تلك الساعة في مشكلة العمل على مضاعفة تلك المحصولات للإنتفاع بتلك المشتقات!

واستطاع كارفر بعد ذلك أن يكتشف في معمله كثيرًا من الخواص والمنافع التي كانت مجهولة للمحصولات الزراعية المختلفة، فإستخرج من القطن كتلًا للرصف، ومن قشور البنجر والأعشاب أدوية كثيرة نافعة، كما إستخرج المطاط من القمامة، ومن التربة الطينية في ولاية الباما صنوفًا من الأصباغ ومواد التلوين التي كان لها أكبر الأثر في قيام مصانع كبيرة للطلاء، جمعت ثروة طائلة بفضل ذلك الكشف العظيم!

إستمر كارفر خمسين سنة، يواصل جهوده العلمية المثمرة التي عادت على أمريكا كلها بأكبر الفوائد الزراعية والصناعية.وفي سنة ١٩٤٣ توفي جورج كارفر، بعد أن خلد إسمه في سجل العلماء العاملين الذين قدموا للبشرية أجل الخدمات. وهناك في رحاب معهد توسكيجي الذي قضى حياته عاملًا فيه يقوم متحف صغير يحمل إسمه العظيم، ويضم مئات المنتجات النافعة التي إكتشف إستخراجها من مواد مهملة تافهة، كما يضم أمثلة للصناعات اليدوية الدقيقة التي كان مولعًا بها. وفي ناحية من المتحف عرضت لوحاته الفنية التي أبدعها وصور فيها أحلامه وأمانيه لخير بلاده وخير البشرية جمعاء. وقد شاء القدر فتحققت في حياته أكثر تلك الأحلام!